

الباب الرابع

تقرير البحث

أ. عرض البحث

سيبين الباحث آيات الإمامة عند سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن واحدا فواحدا كما يلي:

1. سورة البقرة الآية 30

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة -يسمي بمدينة- وهي أطول سور القرآن على الإطلاق، والمرجع أن آياتها لم تنزل متوالية كلها حتى اكتملت قبل نزول آيات من سور أخرى.

تدور هذه الآية حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها -صلى الله عليه وسلم- وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها وتدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في هذه الأرض.

فسر سيد قطب عن هذه الآية أنها هي مشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد¹ في الوجود، زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده وتكل إليه الإبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحويل والتبديل وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات وتسخير هذا كله - بإذن الله - في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه. وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والإستعدادات المدخورة كفاء ما في هذه الأرض، فهناك وحدة أو تناسق بين النوامس التي تحكم الأرض - وتحكم الكون كله - والنوانم التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته كي لا تقع التصادم بين هذه النواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة. فهي مثزلة عظيمة، مثزلة هذا الإنسان، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة². ويوحى قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال أو من من تجارب سابقة في الأرض أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شىء من فطرة هذا المخلوق أو من مقتضيات حياته على الأرض وما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض وأنه سيسفك الدماء³.

من بيان التفسير السابق أن كل شىء في الأرض من قوى وطاقات التي ينالها الإنسان من هبة الله، وجعله الله في تلك المثزلة (الخليفة) العظيمة حتى يستطيع الإنسان أن يستخدم ما وهب الله له من هبة وهدية في هذه الأرض مطابقة برضاء الله

¹ المقصود من كلمة الكائن الجديد هو الإنسان

² سيد قطب، ظلال القرآن، (بجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج1، 1986)، ص. 50

³ المرجع السابق، ص. 50

فحسب. أساسا على ذلك فكان الإنسان ليس سلطانا ومالكا لنفسه ولكنه خليفة الله أو نائبه.

2. سورة البقرة الآية 124

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۗ
قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

فسر سيد هذه الآية أن الله تعالى يقول للنبي صلى الله عليه وسلم اذكر ما كان ابتلاء الله لإبراهيم بكتاب من الأوامر والتكاليف فأتمهن وفاء وقضاء وقد شهد الله لإبراهيم في موضوع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة: (وإبراهيم الذي وفي) وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم، مقام الوفاء والتوفيق بشهادة الله عز وجل. والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفي ولا يستقيم.⁴

"قال: إني جاعل للناس إماما" إماما يتخذونه قدوة ويقودهم إلى الله ويقدمهم إلى الخير ويكونون له تبعا، وتكون له فيهم قيادة عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر: الرغبة في الإمتداد عن طريق الذراري والأحفاد. ذلك الشعور الفطري العميق الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضي في طريقها المرسوم ويكمل اللاحق ما بدأه السابق.⁵

"قال: ومن ذريتي؟" وجاء الرد من ربه ابتلاه واصطفاه، يقرر القاعدة الكبرى التي أسلفنا أن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور وبالصلاح

⁴ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج1، 1986)، ص 106

⁵ المرجع السابق، ص 106

والإيمان وليست وراثه أصلاب وأنساب. فالقربي ليست وشيعة لحم ودم، إنما هي وشيعة دين وعقيدة. ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي دعوى الجاهلية التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح⁶. "قال: لا ينال عهدى الظالمين" والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك وظلم الناس بالبغى، والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة وإمامة الخلافة وإمامة الصلاة وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في آية صورة من صورها ومن ظلم-أي لون من الظلم- فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها⁷.

ولأجل ذلك أن معنى كلمة الإمام في هذه الآية هو من يحثُّ الناس إلى الله ويقودهم إليه ويقدمهم إلى الخير. ولمن يستحقونه بالعمل والشعور وبالصلاح والإيمان وليست وراثه أصلاب وأنساب. فالقربي ليست وشيعة لحم ودم إنما هي وشيعة دين وعقيدة. والإمامة تشتمل على كل معاني الإمامة وهي إمامة الرسالة وإمامة الخلافة وإمامة الصلاة وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة.

3. سورة النساء الآية 59

⁶ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج1، 1986)، المرجع السابق، ص 106

⁷ المرجع السابق، ص 106

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ^ط فَإِنْ
تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^ج
ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.

هذه السورة مدنية وهي أطول سور القرآن-بعد سورة البقرة- وترتيبها في
التزول بعد سورة الممتحنة كما قيل في الروايات: إن بعضها نزل في غزوة الفتح في
السنة الثامنة للهجرة وبعضها نزل في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة.
والهدف الكبير من هذه السورة في تنظيم المجتمع على أساس التكافل والتراحم
والتناصح والتسامح والأمانة والعدل والمودة والطهارة ومحور الرواسب المتخلفة فيه من
الجاهلية وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة.
قبل أن يفسر سيد هذه الآية بينه في مقدمتها عن تكاليف الجماعة المسلمة
وهذا هو خلقها: أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين (الناس) بالعدل على منهج الله
وتعليمه ومنهجه هو منهج "الرباني".

فسر سيد قطب هذه الآية أنها في هذا النص القصير بين الله سبحانه شرط
الإيمان وحد الإسلام في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في
الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم ومصدر السلطان وكلها تبدأ وتنتهي عند
التلقي من الله وحدة والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً، من جزئيات
الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول
والآراء والأفهام ليكون هنالك الميزان الثابت الذي ترجع إليه العقول
والآراء والأفهام⁸.

⁸ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج2، 1986)، ص 690

إن الحاكمية لله وحده في حياة البشر -ماجل منها وما دق وما كبر منها وما صغر- والله قد سن شريعة أودعها قرآنه وأرسل بها رسولا يبينها للناس ولا ينطق عن الهوى. فسنته- صلى الله عليه وسلم- من ثم شريعة من شريعة الله⁹.

والمقصود من أولى الأمر هنا هو من المؤمنين الذي يتحقق فيهم شرط الإيمان وحدُّ الإسلام المبين في الآية. من طاعة الله وطاعة الرسول وإفراد الله (أولى الأمر) - سبحانه - بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداءً، والتلقي منه وحدة - فيما نص عليه - والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه¹⁰.

والنص يجعل طاعة الله أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك - بما أنه مرسل منه - ويجعل طاعة أولى الأمر "منكم" تبعا لطاعة الله ورسوله¹¹.

نعرف من هذه الآية من تفسيره، أن طاعة الله وطاعة الرسول وأولى الأمر واجبة على كل مسلم ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وكان كل فرد أمينا على شريعة الله وسنة رسوله، أمينا على إيمانه ودينه، أمينا على نفسه وعقله، أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة.

4. سورة النساء الآية 83

⁹ سيد قطب، ظلال القرآن، (بجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج2، 1986)، ص 690

¹⁰ المرجع السابق، ص 691

¹¹ المرجع السابق، ص 691

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ^ط وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ
وَإِلَىٰ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ^ط وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا.

فسر سيد قطب هذه الآية أنها الصورة التي يرسمها هذا النص هي صورة
جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام ولم يدركوا قيمة
الإشاعة في خلخلة المعسكر وفي النتائج التي تترتب عليها وقد تكون
قاصمة لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ولم يدركوا جدية الموقف
وأن كلمة عابرة وفلته لسان قد تجر من العواقب على الشخص ذاته وعلى
جماعته كلها ما لا يخطر له ببال وما لا يدرك وقوعه بحال¹².

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه أو لم يكتمل
ولاؤه لقيادته أو هما معا ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعيتين في
المجتمع المسلم حينذاك باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان
ومختلفة المستويات في الإدراك ومختلفة المستويات في الولاء وهذه خلخلة
هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني¹³.

"ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه
منهم": أي لو أنهم ردوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول -
صلى الله عليه وسلم- إن كان معهم أو إلى أمرائهم المؤمنين، لعلم حقيقة

¹² سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدد: دار العلم للطباعة والنشر، ج2، 1986)، ص 723

¹³ المرجع السابق، ص 724

القادرون على استنباط هذه الحقيقة واستخراجها من ثنايا الأنبياء المتناقضة والملايسات المتراكمة¹⁴.

فهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم الذي يقوده أمير مؤمن - بشرط الإيمان ذاك وحدّه - حين يبلغ إلى أذنيه خير أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره، لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه أو بين من لاشأن لهم به لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة كما تملك تقدير المصلحة إذاعة الخبر - حتى بعد ثبوته - أو عدم إذاعته¹⁵.

"ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا": آية واحدة تحمل هذه الشحنة كلها وتتنال القضية من أطرافها وتعمق السريرة والضمير وهي توضع التوجيه والتعليم ذلك أنه من عند الله (ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)¹⁶.

وهذه الآية تعتبر عن النظام الأساسي في شعار الأخبار لأن جميع الأخبار لاتساوي لنيلها إما من العالم أو الجاهل من الصبي والشباب وكذلك جميع الأسئلة لاتحتاج إلى الأجوبة، لو أنهم ردوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إن كان معهم أو إلى أمرائهم المؤمنين، لعلم القادرون على استنباط هذه الحقيقة واستخراجها من ثنايا الأنبياء المتناقضة.

5. سورة يونس الآية 14

ثُمَّ جَعَلْنَاكَمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

¹⁴ سيد قطب، ظلال القرآن، (بجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج2، 1986)، ص 724

¹⁵ المرجع السابق، ص 724

¹⁶ المرجع السابق، ص 724

هذه السورة مكية. ولو أنها بعض من القرآن تشترك مع سائره في خصائصه القرآنية العامة وفي تفرقه من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب في الموضوع وفي الأداء سواء. إلا أن له مع ذلك وجهه الخاص ومذاقه المعين الذي يعينه موضوعه الأساسي وهو حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وحقيقة العلاقات بينهما.

فسر سيد قطب هذه الآية أنها لمسة قوية للقلب البشري، إذ يدرك أنه مستخلف في ملك أديل من مالكيه الأوائل وأجلي عنه أهله الذين سبق لهم أن مكثوا فيه وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك وإنما هي أيام يقضيها فيه، ممتحن بما يكون منه، مبتلى بهذا الملك، محاسباً على ما يكسب، بعد بقاء فيه قليل¹⁷.

إن هذا التصور الذي ينشئه الإسلام في القلب البشري فوق أنه يريه الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى، هي صمام الأمن له وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه¹⁸.

إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض وبكل شيء يملكه وبكل متاع يتاح له، يمنحه مناعة ضد الإغترار والإنخداع والغفلة ويعطيه وقاية من الإستغراق في متاع الحياة الدنيا ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه. وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به ويصورها لقوله تعالى "لننظر كيف تعملون" ليجعله شديد التوقي، شديد الحذر، شديد الرغبة في الإحسان وفي النجاة أيضاً من هذا الإمتحان! وهذا مفرق الطريق بين التصور الذي ينشئه الإسلام في

¹⁷ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدد: دار العلم للطباعة والنشر، ج3، 1986)، ص1770

¹⁸ المرجع السابق، ص1770

قلب البشري بمثل هذه اللمسات القوية والتصورات التي تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروي من حسابها! فلا يمكن أن يلتقي اثنان أحدهما يعيش بالتصور الإسلامي والآخر يعيش بتلك التصورات القاهرة¹⁹.
قبل شرح هذه الآية بين سيد قطب هم الذين ارتكبوا الظلم مع أن الرسول جاء إليهم بحمل التصفية ولكنهم يعارضونه حتى يعذبهم الله.
ثم بين هذه الآية أن الإنسان مبدلهم على ولائهم وبعد مرور الزمان أن ينخلع من ولائه لمدة قصيرة لكثرة الإمتحانات وسوف يسئل الله عنه في يوم القيامة، ولذلك أن الإسلام قد صور في قلوب الناس حقيقة الحق بالتحقيق والفتانة والتقوية حتى لا ينخدعوا من الشيء الذي يعرضهم عنه.

6. سورة يونس الآية 73

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ .

فسر سيد قطب هذه الآية أن نجاة نوح ومن معه في الفلك-وهم المؤمنون- واستخلافهم في الأرض على قلتهم وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم: "فانظر كيف كان عاقبة المنذرين" لينذر من ينظر (عاقبة المنذرين) المكذبين وليتعض من يتعض بعاقبة المؤمنين الناجحين²⁰.

ويجعل السياق بإعلان نجاة نوح ومن معه لأن نوحا والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطرة التحدي للكثرة الكافرة، فلم تكن النتيجة مجرد هلاك

¹⁹ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج3، 1986)، ص 1770

²⁰ المرجع السابق، ص1812

هذه الكثرة بل كان قبلها نجاة القلة من جميع الأخطار واستخلافها في الأرض، تعيد تعميرها وتحديد الحياة فيها وتأدية الدور الرئيسي فترة من الزمان²¹.

هذه سنة الله في الأرض وهذا وعده لأوليائه فيها فإذا طال الطريق على العصابة المؤمنة مرة فيجب ان تعلم أن هذا هو الطريق وأن تستيقن أن العقابة والإستخلاف للمؤمنين، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيئ وهي ماضية في الطريق والله لا يخدع أوليائه -سبحانه- ولا يعجز عن نصرهم بقوته ولا يسلمهم كذلك لأعدائه ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم- في ابتلاء- بزد الطريق²².

وفي اختصار واجمال يشير السياق إلى الرسل بعد نوح وما جاءوا به من البينات والخوارق وكيف تلقاها المكذبون الضالون²³.

صورت هذه الآية على قوم نوح عن حقيقة قلة المؤمنة في مواجهتهم على العراقيل للكثرة الكافرة الذي كلها يغلبه على قلة المؤمنة لتمسكهم بحبل الله حتى أعطي إليهم نصيب من الخليفة في هذه الأرض.

7. سورة الأنبياء الآية 73

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ .

²¹ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج3، 1986)، ص 1812

²² المرجع السابق، ص 1812

²³ المرجع السابق، ص 1812

هذه السورة مكية تعالج الموضوع الرئيسى الذي تعالجه السور المكية موضوع العقيدة تعالجه في ميادينه الكبيرة ميادين التوحيد والرسالة والبعث.

فسر سيد قطب هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لقد ترك وطنه وأهله وقوما فعوضه الله الأرض المباركة وطنه خيرا من وطنه وعوضه ابنه اسحاق وحفيده يعقوب أهلا خيرا من أهله وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوما خيرا من قومه. وجعل من نسله أئمة يهدون بأمر الله وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات على اختلافها وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وكانوا طائعين لله عابدين، فنعم العوض ونعم الجزاء ونعمت الخاتمة التي قسمها الله لإبراهيم، لقد ابتلاء بالضراء فصبر فكانت الخاتمة الكريمة اللاتقة بصيره الجميل²⁴.

ولذلك نعرف أن الله جعل الأئمة هادين للناس مما أمره الله وأوحى إليهم فعل الخيرات في هذه الأرض وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكات وغيرهم. فالصبر على ابتلاء ما وقع عليهم من الله فالله سيعطيهم النعم.

8. سورة الفرقان الآية 74

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا

²⁴ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجددة: دار العلم للطباعة والنشر، ج4، 1986)، ص 2388

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسرية وتطمين له وتقوية وهو يواجهه مشركي قريش وعنادهم له وتطاولهم عليه وتعنتهم معه وجدالهم بالباطل ووقوفهم في وجه الهدي وصددهم عنه.

فسر سيد قطب هذه الآية أنها الشعور الفطري الإيمان العميق: شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله وفي أوليهم الذرية والأزواج، فهم أقرب الناس تبعة وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال والرغبة كذلك في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير، يأتى به الراغبون في الله وليس في هذا من أثره ولا استعلاء فالركب كله في الطريق إلى الله.

بينت هذه الآية فطرة إيمان الإنسان لمقابلة الحياة بأن يكون قدوة للخير وإماما للأقربين منه ليتوجهوا إلى الله بإزالة صفة التكبر لأن جميع الناس بالحقيقة يسبرون في سبيل الله في حياتهم.

9. سورة فاطر الآية 39

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۖ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا.

هذه السورة المكية نسق خاص في موضعها وفي سياقها، أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد فهي تمضي في إيقاعات تتولى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها، قبل أن يفسر سيد قطب في تفسيره هذه الآية بينها في مقدمتها عن جولة مع البشرية في أجيالها المتعاقبة يخلف بعضها بعضا وجولة في الأرض والسموات للبحث

عن أي أثر للشركاء الذي يدعوهم من دون الله وجولة في السماوات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية القادرة تمسك بالسموات والأرض أن تزولا.

قال سيد قطب في تفسيره هذه الآية أنها تتابع الأجيال في الأرض وذهاب جيل ومجيئ جيل ووراثه هذا لذلك وانتهاء الدولة وقيام الدولة وانطفاء شعلة واتقاد شعلة وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور. إن التفكير في هذه الحركة الدائبة خليق أن يجد للقلب عبرة وعظة وأن يشعر الحاضرين أنهم سيكونون بعد حين غابرين، يتأمل الآتون بعدهم آثارهم ويتذاكرون أخبارهم، كما هم يتأملون آثار من كانوا قبلهم ويتذاكرون أخبارهم. وجيد بأن يوقظ الغافلين إلى اليد التي تدير الأعمال وتقلب الصولجان وتديل الدول وتورث الملك وتجعل من الجيل خليفة لجيل، وكل شيء يمضي وينتهي ويزول والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول ولا يجول.²⁵

ومن كان شأنه أن ينتهي ويمضي فلا يخلد ولا يبقى، من كان شأنه أنه سائح في رحلة ذات أجل وأن يعقبه من بعده ليرى ماذا ترك وماذا عمل وأن يصير في النهاية إلى من يحاسبه على ما قال وما فعل من كان هذا شأنه جدير بأن يحسن ثوائه القليل ويترك وراءه الذكر الجميل ويقدم بين يديه ما ينفعه في مثواه الأخير.²⁶

"هو الذي جعلكم خلائف في الأرض" وفي ظل هذا المشهد المؤثر المتتابع المناظر، يذكرهم بفردية التبعة، فلا يحمل أحد عن أحد شيئا ولا يدفع أحد

²⁵ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج3، 1986)، ص2947

²⁶ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج3، 1986)، ص2947

عن أحد شيئا ويشير إلى ما هم فيه من إعراض وكفر وضلال وعاقبة الخاسرة في نهاية المطاف²⁷.

هذه هي من الخواطر التي تساور خاطر حين يوضع أمامه مشهد الدثور والظهور والطلوع والأفول والدول الدائلة والحياة الزائلة والوراثة الدائمة جيلا بعد جيل.

10. سورة ص الآية ص 26

يَٰدَاؤُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَظْلُمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ.

قبل تفسير هذه الآية بين سيد مقدمتها أن هذا الدرس كله قصص وأمثلة من حياة الرسل تعرض كي يذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدع ما يعانيه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب واقتراء ويصبر ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور، وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير وفيهم من سخر له الريح والشيطان كداود وسليمان وغير ذلك وكان فيهم ضعف البشر وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم إنما يبين لهم ويوجههم ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم. وفي هذه ما يطمئن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رعاية ربه له وحمايته وحياطته في كل خطرة يخطوها في حياته.

فسر سيد قطب هذه الآية أنها الخلافة في الأرض والحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى، واتباع الهوى-فيما يختص بني-هو السير مع الإنفعال الأول وعدم التريث والتثبت والتبين مما ينهي مع الإستمرار فيه إلى الضلال أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله، وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب²⁸.

وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض وفي الحكم بين الناس وقيل أن تمضي قصة داود إلى نهايتها في السياق يرد هذا الحق إلى أصله الكبير، أصله الذي تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما، أصله العريق في كيان هذا الكون كله، وهو أشمل من خلافة الأرض ومن الحكم بين الناس وهو أكبر من هذه الأرض كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا، إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة ومنه عليه جاءت الرسالة الأخيرة وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل²⁹.

صورت هذه الآية الخلافة في هذه الأرض لتحكيم الناس بالحق وعدم الهوى وأما مبدأ الحق يتمسك بالقرآن الذي نزل الله للعالمين وما فيها أساسا لتحكيم ذلك الحكم.

²⁸ سيد قطب، ظلال القرآن، (مجدة: دار العلم للطباعة والنشر، ج5، 1986)، ص 3018

²⁹ المرجع السابق، ص 3018

ب. تحليل البحث

ومن هذ البحث حاول الباحث أن يبين فكرة سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن عن مفهوم الإمامة في القرآن.

1. معنى الإمامة عند سيد قطب في تفسيره

كما قد بين الباحث سابقا في باب الثاني أن لفهم معنى الإمامة في القرآن لا بد من احتياج إلى معرفة المصطلحات عما يتعلق بالإمامة أولا، ولكن قد صور الباحث - في الباب الأول والثاني - عن معنى الخليفة والإمام وأولي الأمر لغويا كان أم اصطلاحيا ثم معنى الإمامة عند العلماء.

عند تفسير سورة البقرة : 30 قال سيد قطب إن معنى الخليفة في هذه الآية تشار إلى الإنسان الذي أعطى الله إليه واجبة في الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحويل والتبديل وكشف ما في هذه الأرض من قوي وطاقات وكنوز وخامات وتسخير هذا كله - بإذن الله - في المهمة الضخمة التي وكلها الله إلى الإنسان وليس كما فسر المفسرون الآخرون الذين قالوا إن معنى الخليفة في هذه الآية تشار إلى آدم فقط.

استنتج سيد قطب من هذه الآية أن الإنسان الذي أعطى الله إليه واجبة في بناء هذه الأرض وعمارتها وفي تنمية الحياة وتنويعها وفي تحقيق إرادة الخالق في تطويرها وترقيتها وتعديلها لأن الإنسان في الحقيقة قد يعمل الفساد والسوء فيها.

وفي الآية 124 قال سيد قطب إن الإمام يكون القدوة في تربية الناس إلى سبيل الله وحملهم إلى الخير وأما الإمامة فهي لمن يستحقونها بالعمل والشعور وبالصلاح والإيمان وليست وراثية أصلا وأنساب. فالقربي ليست وشيخة لحم ودم

إنما هي وشيعة دين وعقيدة. وكان الظن عن الأهل أو القربي والقبيلة والفرقة ليس إلا من ظن الجاهلية المتعارضة بالتصور الإيماني الصحيح، والإمامة تشتمل على كل معاني الإمامة وهي إمامة الرسالة وإمامة الخلافة وإمامة الصلاة وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة وليس كما فسر الطبأطبائي في تفسيره الميزان في تفسير القرآن (المجلد 1: 266) إن الإمامة بمعنى الوحي والإنسان لا يكون إماما إلا النبي.

وكذلك صور سيد قطب في سورة النساء 59 أن طاعة الله وطاعة الرسول وأولى الأمر واجبة على كل مسلم مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة وكان كل فرد أمينا على شريعة الله وسنة رسوله، أمينا على إيمانه ودينه، أمينا على نفسه وعقله، أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة، وأما المقصود من أولى الأمر هنا فهو من المؤمنين الذي يتحقق فيهم شرط الإيمان وحدُّ الإسلام المبين. وفي سورة ص: 26 صوره أن الخلافة في هذه الأرض لتحكيم الناس بالحق وعدم الهوى وأما مبدء الحق يتمسك بالقرآن الذي نزل الله للعالمين وما فيها أساسا لتحكيم ذلك الحكم. وكذلك وقال سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن في سورة فاطر: 39 أن فكرة سيد قطب عن الإمامة هي كمبدل الولاء بأن تتابع الأجيال في الأرض وذهابهم ومجيئهم وورثة وانتهاء الدولة وقيام الدولة وانطفاء شعلة واثقاد شعلة وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور وهو مسؤول عن رعيته في يوم الآخرة ولا ينظر الإتصال في الدم والنسب والقبيلة والفرقة لأن يكون الإنسان إماما في الأرض، وهناك متشابه بما قاله قريش شهاب إن كلمة الخليفة تعني كثيرا بالمبدل لأن المبدل جاء في الخلف/الوراء بعد المبدل به. فاعتمادا على ذلك يوهم أن الخليفة كمبدل الله في قيام

إرادته وتأدية تقريراته، ولكن ليس بمعنى أن الله لا يقدر بل أنه أراد أن يمتحن الإنسان ويعطي إليه الاحترام³⁰

ويقرب ذلك ما قاله ابن خلدون وقد كتب الباحث في الباب الثاني أن الإمامة أو الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية الراجعة إليها إذا أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسية الدنيا به. وهناك متشابه بما قاله فتحي يكن في كتابه مشكلات الدعوة والداعية أن الإمامة هي فن معاملة الطبيعة البشرية والتأثير في السلوك البشري وتوجيهه نحو هدف معين وبطريقة تضمن بها طاعته وثقته واحترامه³¹.

والنتيجة هي أن كلمة الخليفة أو الإمام المشارة إلى آدم وداود عليهما السلام استخدمها القرآن لمن أعطي له قدرة في تنظيم المنطقة الواسعة كانت محدودة بجانب ذلك، كان الإمام قد يعمل الخطأ لاتباع هواه فلذلك ذكر آدم وداود لئلا يتبعا هواهما. وكذلك أن معنى كلمة الخليفة والإمام وأولو الأمر في معنى الإمامة وتشتمل على كل معاني الإمامة وهي إمامة الرسالة وإمامة الخلافة وإمامة الصلاة وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة وكمبدل الولاء بأن تتابع الأجيال في الأرض وذهاب جيل ومجيئ جيل وهذا الدثور والظهور المتواليان على مر الدهور وكان الإمام واجبة في بناء هذه الأرض وعمارتها وفي تنمية الحياة وتنويعها وفي تحقيق إرادة الخالق في تطويرها وترقيتها وتعديلها لأن الإنسان في الحقيقة قد يعمل الفساد والسوء فيها.

³⁰ قريش شهاب، Tafsir Al-Misbah، (جاكرتا، 2007) Lentera Hati ص 142

³¹ فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996) ص 75

2. مبادئ الإمامة في القرآن عند سيد قطب

هناك مبادئ الإمامة المورودة في القرآن الكريم ولكن أخذ الباحث أن يبين مبادئ الإمامة عما يتعلق بالأمانة والعدل

من مبادئ الإمامة التي قد بينها سيد قطب في تفسيره المسمى بـ "ظلال القرآن في سورة البقرة : 124 حيث يقول تبارك وتعالى": لاينال عهد الظالمين" والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك وظلم الناس بالبغي والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة وإمامة الخلافة وإمامة الصلاة وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في آية صورة من صورها. ومن ظلم-أي لون من الظلم- فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها.

ومن ذلك البيان السابق أن من مبادئ الإمامة عند سيد قطب هو العدل لأنه استحقاق هذه الإمامة في آية صورة من صورها إما من إمامة الخلافة والرسالة أو الصلاة ولتحكيم الناس بالعدل فضلا عن تمسك الإمام بأمانات كالإمامة والقيادة.

ثم من تفسيره في سورة البقرة :30 عن وظيفة الإنسان في هذه الأرض كخليفة فطبعاً له أمانة في هذه الأرض كما ذهب إلى ذلك سعيد المنور حيث يقول إن العمارة أمانة والأمانة لا بد من إقامتها إقامة حسنة تتمشى مع القانون والدستور اللازم. فالعمارة هي أن يؤدي أهلها بالحق وعلى إثر ذلك، الأمانة لهذه القضايا هي القيام بالمسؤوليات بكل جهد وصدق والمحافظة على المبدأ، والعمارة لا تورث بل تكلف على كل إنسان لكونه خليفة في هذه الأرض.

ويقرب ما قالت الدكتورة خديجة أحمد أبوأثلة في كتابه الإسلام والعلاقات في السلم والحرب إن العلاقات الإنسانية وتطبيقها في العلاقات الدولية هي: تكريم

الإنسان والمساوات في القيمة الإنسانية والتعاون والتسامح والوفاء بالعهد والعدالة والمعاملة بالمثل والحرية³².

حبا أو كرها لابد على الانسان الاستعداد في أن يمتحن لأن يكون الإمام في هذه الأرض والإمام المثالي لابد أن يفهم مبادئ الإمامة الأساسية ألا وهي إستيفاء الأمانة والعدالة كما قال الله تعالى :

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا"³³

فسر سيد قطب هذه الآية عن تكاليف الجماعة المسلمة وهذا هو خلقها: أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين (الناس) بالعدل على منهج الله وتعليمه ومنهجه هو منهج "الرباني". والمقصود من هذه الأمانة هي أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه. فهذه أمانة الفطرة الإنسانية التي ناط الله بها فطرة الإنسان وأمانة التعامل مع الناس، ورد أمانتهم إليهم: أمانة المعاملات والودائع المادية وأمانة النصيحة للراعي وللرعية وأمانة القيام على الأطفال وأمانة المحافظة على حرمان الجماعة أموالها وثغراتها وسائر مايجلوه منهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدي. وكذلك المقصود من العدل هو عدلا شاملا بين الناس جميعا على منهج الله وتعليمه إما من المؤمنين وكفاراً أصدقاء وأعداء سودا وبيضا أو عربيا وعجما وغير ذلك.

³² الدكتور خديجة أحمد أبوأثلة، الإسلام والعلاقات في السلم والحرب، (القاهرة: دار المعارف، 1119) ص 27

³³ سورة النساء : 58

ونتيجة البيان السابق أن من مبادئ التي لا بد على الإمام استحقاقها عند سيد قطب هو أن يكون الإمام عادلا وأميناً، بذلك المبدئين كان له كفاءة في الرياسة وقادراً على عمل وظيفة رياسته جيداً في هذه الأرض.

3. خصائص التفسير آيات الإمامة عند سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن

إن المفسرين لا بد أن يكون لهم الأخلاق الحمودة والثقافة الحسنة والأدب الجميل لأنهم كانوا في منزلة مهمة كمربي تصميم الفكر القرآني، فكان لهم شخصية في تصوير الأخلاق الحمودة ويلزم عليهم تبين تفسيرهم وشرح أهدافه ومقاصده كي ينال تلاميذهم منهم العلم الخالص. ويمكن ذلك كله بالصفات والأخلاق الحمودة. ومن مناهج التفسير التي استخدمها سيد قطب في تفسيره هي أن يأتي أولاً بظلاله مقدمة السورة أو الآية قبل تبينها وتفسيرها، ويفسر الآيات مناسبة بترتيبها في المصحف بمقارنة الآيات المتعلقة بها وإلقاء نصوص الأحاديث الصحيحة أي الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، ويعلق تفسيره بالأمور السياسية والاجتماعية، ويقدم المفاهيم المختارة ويعلق الاسلام بترقية العلوم وتطورها في معالجة أمور حياة المسلمين، ولا يقدم كثيراً المصطلحات والمباحث العلمية عميقة، ويتعد عن روايات الإسرائيليات، ولا يبين تفصيلاً معاني المفردات، ولا يفضل الأمور الفقهية.

ولذلك في تفسير سيد قطب الذي كان له خاصية متفرقة بالتفسير الأخرى كما ذكره الكاتب من قبل. وأراد الكاتب هنا تقديم خاصية هذا التفسير في الآيات المتعلقة بالإمامة، كما ظهر في سورة البقرة: 30، 124 وسورة النساء 59 وسورة فاطر 39. نقل فيها سيد قطب من آراء العلماء المتأخرين والمتقدمين كمصدر من مصادر تفسيره، لأن لهم دور هام في رفع قيمته. ويوجد فيه تفسير آيات القرآن

المتعلقة بالأمر الاجتماعى والحكم عنها بالاختيارات فى إنائها مناسبة بحالة المسلمين حتى يظهر دور نتيجة القرآن العامة.

ورآى الباحث فى تفسيره فى ظلال القرآن ما يتعلق بالإمامة أن فى بيانه هو يأتي أولا فى مقدمة عما يتعلق بآيات الإمامة وتوضح أهدافها ومقاصدها ويفسر الآيات مناسبة بترتيبها فى المصحف بمقارنة آيات الإمامة وإلقاء نصوص الأحاديث الصحيحة، ويعلق تفسيره بالأمر السياسية والاجتماعية، ويقدم المفاهيم المختارة ويعلق الاسلام بترقية العلوم وتطورها التى ستنتهى أمور حياة المسلمين.